المحاضرة رقم (01):

عوامل نشأة التفكير البلاغي عند العرب

توطئة:

إن البحث البلاغي عند العرب مر بمراحل متعددة حتى وصلنا إلينا في هذه الصورة المعهودة اليوم، والتي قسم بموجبها – أي علم البلاغة– إلى العلوم الثلاثة المعروفة: علم المعاني، وعلم البيان وعلم البديع. ولكن المتأمل في هذا الدرس ينبغي أن يطرح تساؤلات، أهمها، العوامل التي ساعدت في ظهور هذا التفكير البلاغي عند العرب أولا، ثم التطور الحاصل في مفهوم البلاغة عندهم، وما هي المصنفات البلاغية التي يمكن أن نتوقف عندها للنظر في مقولاتها؟.

عوامل نشأة البلاغة:

لا شك أن أي علم يظهر للوجود تكون له مسببات دفعت العلماء إلى تحقيق التفكير به، وهو ما حصل فعلا مع البلاغة العربية، سواء كان ذلك قبل مرحلة نزول القرآن الكريم، أو بعده. ومن ثم يمكن أن نذكر تلك العوامل وفق ما يأتي:[1]

الشعر:

يعتبر الشعر مميزا هاما للحضارة العربية الإسلامية، اهتم به العرب، بل كان ديوانهم، وهو " علم قوم لم يكن أصح منه" فقد أدى هذا الاهتمام إلى البحث عن طرق في تذوقه، لتعيين الحسن و الردئ، فكانوا عن طريق الفطرة مدركين لبعض خصائص هذا الشعر، فالاهتمام بتلك الخصائص

هو في نظرنا اهتمام بالتفكير البلاغي، فنأخذ مثالا لذلك [2]، ما يروى عن النابغة

---

[1]- للتفصيل أكثر في العوامل التي ساعدت على نشأة البحث البلاغي، ينظر، التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود، الكتاب الجديد، ط3، 2010، ص23.

[2]- ينظر، شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 11.

الذبياني، الحاكم للشعر، الذي تطاول عليه حسان بن ثابت، وتحدي حكمه بأن يكون الشعر من الخنساء، حين فضل عليه النابغة، الأعشى والخنساء. ومنه قال حسان:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ ، وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ وَأَكْرِمْ بِنَا خَالًا ، وَأَكْرِم بِذَا ابْنَمَا.

فقال النابغة " :إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى فقال له: إنك قلت الجفنات فقلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر. وقلت يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن الدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل اكثر طروقا . وقلت: يقطرن من نجدة دما. فدللت على قلة القتل، ولو قلت يجرين لكان أكثر الضباب الدم، وفخرت بما ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا ".

وفي النص دلالات واضحة على بدء التفكير في تذوق الشعر من حيث النظر في بنيتها الداخلية (خصائص لغته) ، والتوصل إلى التميز بين الألفاظ في قرض الشعر ، فليست كلها معبرة عن المعنى المراد ، ولما نقول بداية التفكير باللغة والنظر في خصائص ال التفكير البلاغي عندهم .

القرآن :

نور القرآن القطب الذي دارت حوله المجهودات الفكرية زمنه، وذلك لبيان قضية إعجازه واستخراج وجه التحدي فيه، فانعكس ذلك على الاهتمام بلغته ومن ثم تقنين اللغة العربية، خوفا من أن يصيب الفساد القرآن، فقد استفادت البلاغة العربية من وراء الاهتمام بالنص القرآني، وكان مرد الاستفادة إلى بيئة المعتزلة وبيئة المتكلمين، من حيث تأويل المعتزلة لأي الذكر الحكيم على أصولهم العقائدية ومن بينهما مبدأ التوحيد.

تقعيد اللغة :

لقد دفع ع القرآن والشعر من المصادر اللغوية التي رجع إليها اللغويون لتقعيد اللغة، فاستخرجوا خصائصهما النوعية وفق مشاغل نحوية في درجة الأولى، لكن ذلك أخرجهم إلى المؤثرات الأجنبية:

بعض الملاحظات البلاغية ، فنجد ابن جني (ت392هـ) يعالج مبحث " الحقيقة والمجاز " في كتابه : " الخصائص" [3]، وهو أهم مبحث يقوم عليه علم البيان إلى اليوم .

الحاجة إلى التعلم و التعليم :

لقد أدى التطور الحضاري للعرب إلى استقرارهم في المدن ، وظهرت مع ذلك فئات اجتماعية تقوم على صناعات لم تكن الحاجة إليها سابقا ، ومنها من فئة المؤدبين والمعلمين ، ففي عهد الدولة الأولى اشتغلت هذه الطائفة إلى تعليم الأولاد المرشحين على تعليم البلاغة لأمور عقائدية في بيئة المكتملين و المعتزلة.

و أما الطائفة الثالثة تقوم على تأديب على الكتاب المحلقين في مؤسسات الدولة بديوان الرسائل والكتابة .

المؤثرات الأجنبية:

أشار بعض الباحثين إلى وجود عناصر غير عربية في موروثنا البلاغي، فقد كان الاهتمام بتأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية من الدراسات النوعية المعاصرة؛ إذ تناول طه حسين القضية في بحث وسمه ب " **البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر**"، وتتبعه في ذلك تلميذاه أمين الخولي وشوقي ضيف. وواضح أن الاهتمام بالبلاغة اليونانية كان في فترة مبكرة من تطور الدرس البلاغي عند العرب فكتاب الخطابة لأرسطو كان معروفا في القرن الثالث الهجري، وشرحه الفارابي (ت 339هـ). أما ابن سينا (ت 428 هـ) فقد اهتم به في كتابيه : " معاني كتاب ريطوريقا " ، و " الخطابة" ومعنى ذلك أن أفكار أرسطو تسربت مبكرا إلى علماء العربية، وزاد الاهتمام في الفترة المتأخرة إلى عصر حازم القرطاجني .

---

[3]-ينظر، ابن جلي: الخصائص ، تحقيق الشرينى شريدة، دار الحديث، القاهرة، 2007، ص 418.

المحاضرة رقم (02) :

مفهوم البلاغة وتطوره عند علماء العربية

ان الحديث عن مفهوم البلاغة هو حديث عن مصطلحها وكيف تقبله العلماء عبر مراحل تطور التفكير البلاغي، وما يمكن قوله في هذا السياق أن هذا المفهوم عن ما في الاستعمال، فنظرة الجاحظ إليه تختلف عن نظرة ابن المعتز، وكذا عند علماء الإعجاز، وحتى إلى عبد القاهر الجرجاني، ثم كيف تحقق المفهوم في مشروع السكاكي من خلال كتابه: « مفتاح العلوم » .

فنجد مثلا الجاحظ يرادف في الاستعمال بين البلاغة والبراعة والفصاحة والبيان، والحق كما سنرى أن هذه المصطلحات تختلف جوهريا في المفهوم. والمطلع على كتاب ابن المعتز يستعمل مصطلح " البديع " بدلا عن مصطلح "البلاغة "، عنوانا لكتابه؛ المهم أن تطور التفكير تلك الحجاب عن الاستعمال. غير أن الذي يهمنا في ذلك هو مفهوم علم البلاغة أي النظر إلى الفضة البلاغة " باعتبارها قائمة على العلم، فما المراد منه؟ .

لقد بحث الجاحظ في مفهوم العلم البلاغة، ونقل في آثاره " البيان والتبيين " مفهوما لها ، فكان ذالك أولا من الأمم الأخرى: قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام؟ وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. ونقل الجاحظ قول الرواة والإخباريين، وقد دار بينه اور بين العتابي حوارا، قالت العتابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعالة فهو بليغ، فإن اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل في صور الحق ، قلت له : قد عرفت الإعادة و الحبسة ، فما

الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هذا، وياهيه، واسمع مني واستمع إلي، وافهمي علي، أو لست تفهم، أو لست تعقل فهذا كله وما أشبهه عي وفساد[4] .

وأما البلاغة عند أبي هلال العسكري (ت 395هـ) فهي المقصود منها ائتلاف اللفظ مع المعنى، وحسن الإصغاء للمتكلم[5]. وابن رشيق ربط البلاغة بالإيجاز في اللفظ والإطناب في المعنى[6]. ولرماني (ت 384هـ) قول مشهور في تعريفها: وهي " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[7] ". ويمكن أن تصل إلى مفهوم البلاغة وفق ما تحقق في مدرسة السكاكية البلاغية، ونقصد بذلك قول تلميذه الخطيب القزويني، معرفا إياها: " مطابقة الكلام المقتضى الحال مع فصاحته ".

وبناء على ذلك فمفهوم علم البلاغة يتجلى في مجموع مفهوم علومه الثلاثة، وهو علم المعاني" تتبع خواص تراكيب الكلام ورعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال "، وعلم البيان " إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لتوضيح الدلالة "، وعلم البديع " تحسين أوجه الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ".

---

[4]-الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق ناصر محمدي محمد جاد، دار القدس للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص76 وما بعدها.

[5]- ينظر، العسكري: الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1989، ص 74.

[6]- ابن رشيق: العمدة، ص 40.

[7]- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، ص 76.

توطئة:

نحاول في هذه المحاضرة التعرف على التطور التاريخي لتطور التفكير البلاغي عند العرب، والذي لا شك فيه أن صورة البلاغة اليوم، مرت بتاريخ، وعرفت في تطورها جملة من الإضافات التي قدمها علماء العربية، وهو يبحثون في قضايا النص القرآني والكلام البليغ، ويكون عند المحدثين كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة أقدم آثار طرح فيه السؤال البلاغي، وهو ما تحاول هذه المحاضرة جعله نقطة البدء في التفكير البلاغى وصولا إلى كتب مدرسة السكاكي البلاغية.

- مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت210هـ) :

يعد كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة (ت210هـ) من أقدم ما كتب في البلاغة العربية ، حاول فيه المؤلف معالجة قضايا المجاز في القرآن الكريم، ويعود سبب تأليفه إلى استفسار ورد في مجلس الفضل بين الربيع، " قال إبراهيم بن اسماعيل الكاتب: قد سألت عن مسألة أفتأذن اي ان اعرفك إياها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال إبراهيم: قال الله عز وجل: " وطلعها كأنه الشياطين ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. فقال أبو عبيدة: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني و الْمَشْرِقِيّ مضاجعي ومسنونة زَرَق كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل وعزم أبو عبيدة على عمل كتابه" [8]ويرى بدوي طبانة أن أبا عبيدة عالج في كتابه قضية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية وذلك عن طريق احتذاء أساليب العرب

[8]- أبو عبيدة معمر بن المثنى : مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، القاهرة، ط1، 1954، ص3.

في الكلام وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني. أي فهم المعنى العرب في كلامها وفنون القول عندها[9].

الإبانة عن المعاني. أي فهم المعاني القرآنية عن طريق أسال القرآن نزل بلسان العرب وتقاليدهم في لسان عربي مبين (...) فلم يحتج السلف ولا الذين ومن ثم فالمنطلق المنهجي لأبي عبيدة هو أن القرآن نزل بلسان – القول، يقول فيما بيانه: " إنما أنزل القران بلسان عربي مبين (...) فلم يحت البا أدركوا وحيه (ص) أن يسألوا عن معانيه، لأنهم عرب الألسن (..) وعما فيهمما في مثله، من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب وسن ال والمعاني ".[10]

والذي يهمنا من هذا الكتاب معالجته للمسالة البلاغية « المجاز»، فالمتأمل يجد أن أبا عبيدة لم يقصد بكلمة المجاز المعنى البلاغي الذي عرفه علماء البلاغة فيما . وهو استعمال اللفظ في غير الوضع الذي وضعته له العرب مع قرينة مانعة من إرادة المن الأصلي[11]. فالمجازعنده المعبر والممر والطريق، يستوي عنده، تفسير الكلمات ومعناها اللغوي، ويكون ذلك في تداخل الضمائر وتبادلها المواقع، واختلاف أوجه الإعراب والقراءات واستعمال اللفظ في غير موقعه المتوقع، والزيادة والنقص في تركيب الكلام، وغير ذلك من الأوجه التي تجعل الكلمات معبرا لفهم المعاني كما أراد أبو عبيدة[12]

البيان والتبين للجاحظ (ت 255ه):

أما كتاب البيان والتبيين للجاحظ فهو من أهم من الكتب في البلاغة العربية، ويعتبرا صاحبه رائدا في هذا المجال بحسب اتفاق النقاد المحدثين، فالكتاب " رسم فيه صورا صادقة الروح الأدب والبلاغة إلى عهده، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة في تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل .

---

[9]-بدوي طبانة: البيان العربي، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1986، ص21 .

[10]- أبو عبيدة: المصدر السابق، ج1، ص 8. طاهر بن صالح الجزائري: حديقة الأذهان في حقيقة البيان، تحقيق عدنان عمر الخطيب، مطبوعات مجمع السعة العربية دمشق، 2009، ص 48.

[11]-ينظر، محمد العمري: البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 93.

[12]-عمر عبد الهادي عتيق: علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1،2012،ص19.

وتأتي مناسبة هذا الكتاب أنه جاء للرد على الشعوبية الذين وفي اللغة العربية، وحطوا من قيمة العرب في مجدهم، وكان من مات تناولوها البيان الذي يفخر العرب بأنهم أربابه، وينكر الشعوبية عليهم ذلك و البيان والتبيين ."

والمقصود بالبيان عند الجاحظ هو الاقتدار على الكشف عما في أو سلاطة أو هذر، ومن غير حسبة ولا عي. وهو في نظره ملكة يهبها الله تعالى من عباده.

وتتجلى ملامح الدرس البلاغي في مؤلفات الجاحظ على أن التقسيم الذي استوت عال البلاغة في تحديد علومها الثلاثة (علم المعاني والبيان والبديع) لم يكن موجودا، وانما كانت مسائله متداخلة فيما بينها، وأن التعريفات والتقسيمات للعلم الواحد، أو للفن البلاغي الواحد لم تكن أيضا موجودة، فالقارئ لهذا الكتاب ينبغي عليه أن يبذل جهدا للوصول إلى ادارى الجاحظ البلاغية، لأن صورة هذا الدرس لم تكن معروفة كما هو الحال عند الذين جاءوا بعده، أمثال ابن المعتز وقدامة بن جعفر، والعسكري وابن سنان وابن الأثير.

فهو عندما يعرض لمسألة بيانية أو بديعية لا يذكر نوعها البلاغي، ولكنه يمثل لها من روائع الشعر والنثر، ويعلق عليها بأسلوبه الأدبي. ومثلا في موضوع الاستعارة يذكر قول الشاعر[13]:

يَا دَارُ قَدْ غَيْرِهَا بلاها كَأَنَّمَا بِقَلَم محاها

أخربها عِمْرَانَ مِنْ بَنَاهَا وَكَر ممساها عَلَى مغناها

وَطَفِقَت سَحَابَةٌ تَغْشَاهَا تَبْكِي عَلَى عراصها عَيْنَاهَا

يعقب الجاحظ على هذه الأبيات بقوله " :ممساها، يعني مساءها، ومعناها : موضعها الذي أقيم فيه: والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها، وطفقت يعني ظلت تبكي على عراصها عيناها، عيناها هاهنا للسحاب، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة، وتسميه

[13]- الجاحظ : البيان و التبيين ، ج1 ، ص 152.

لشيئ باسم غيره إذا قام مقامه " [14]، كما أن علوم البلاغة في عصره لم تحدد بالدقة ، فقد كان البديع "مثلا يطلق على الأساليب البلاغية التي تبرز الصور الأدبية الفاتنة ، من تشبيه ومجاز و محسنات ، ولم يكن مقصورا التي تهدف إلى تحقيق التحسين كما وصل إليه عند المتأخرين .

ولعل من القضايا التي عالجها الجاحظ قضية اللفظ والمعنى ، وكان انتصاره للفظ واضحا في قوله المشهور : " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي و العجمي و القروي والبدوي و إنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من السنج وجنس من التصوير.[15]

الكامل للمبرد (ت 285هـ):

أما المبرد (ت 285هـ) فيعود فضله في البلاغة، على أنه أول العلماء الذين كن . التشبيه" بحثا مفصلا في كتابه الكامل في اللغة والأدب، ويرى التشبيه أضرب أربية . التشبيه المفرط، والتشبيه المصيب، والتشبيه المقارب، والتشبيه البعيد الذي يحتاج التفسير[16]. كما يظهر جهده في تقسيم الكناية إلى ثلاثة أنواع، وهي: التعمية والتغطية، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، والكناية الثالثة هي كناية التفخيم والتعظيم.[17]

البديع لابن المعتز (ت 296هـ) وقضية الإعجاز عند الرماني (ت384هـ):

ولما وصلت قضية البحث البلاغي عند ابن المعتز(ت 296هـ) فقد استقل به في مؤلف حمل عنوان " البديع"، وهو أول كتاب لم يخرج فيه البحث عن مسائل البلاغة مقارنة بما سبقه من مصنفات، عند أبي عبيدة، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، وأراد فيه معالجة قضية القديم والحديث، بعدما ادعى شعراء العصر العباسي الثاني أنهم أصحاب البديع، فأبطل ابن المعتز زعمهم، وبين بالدليل قدم البديع، الذي يعني عنده الخلق الفني الجديد، يشمل خمسة

---

[14]- الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1 ، ص 152.

[15]- الجاحظ: الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج 3، ص 67.

[16]- ينظر، المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ،ط3 ، 1997

[17]- عتيق، عمر عبد الهادي: علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2012، ص 25.

فنون وهي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد الإعجاز على الصدر ، والمذهب الكلامي . أما الفنون الأخرى فقد سماها "محاسن الكلام و الشعر ".[18]

وقد أسهمت قضية " الإعجاز في تطور التفكير البلاغي عند العرب بيئة المتكلمين، نذكر رسالة الرماني (ت 384هـ): "النكت في إعجاز القرآن البلاغة في عشرة أقسام، وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل ال والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان. [19]وعالج الباقلاني (ت 403هـ) في نت قضية هامة في كتابه:" بيان إعجاز القرآن" مفادها: امكانية معرفة إعجاز القرآن من يتضمنه من البديع؟. ومن الدراسات التي اهتمت بالقرآن، نذكر: " الجمان في تشبيهات الشريف الرضي (ت 485هـ)، و " بدائع القرآن " لابن أبي الأصبع (ت 654) وغيرهما .

جهود عبد القاهر الجرجاني (471هـ):

تعد جهود عبد القاهر الجرجاني طيبة في خدمة الدرس البلاغي، فقد أطلق عليه النقاد القب " شيخ البلاغة"؛ لاسهاماته في هذا العلم. ولعل مما يمكن أن يذكر عند الحديث عن هذا الرجل نظريته المشهورة في النظم، فكان يتساءل هل يكون القرآن معجز بألفاظه، أو بفواصله؟. ومن ثم فإن الأبعاد الدلالية لهذه النظرية تكمن في أن:

– لا قيمة للكلمة المفردة خارج السياق؟. يقول: " وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة اللفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها

ومعلقا معناها بمعنى ما يليها ". [20]

– ترتيب المعاني في النفس يليه ترتيب الألفاظ في النظم. يقول: " إن الألفاظ إذاكانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق ".[21]

---

[18]- للاطلاع أكثر على جهد ابن المعتز في البلاغة، ينظر كتابه: البديع، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990(المقدمة).

[19]- الرماني: النكت في إعجاز القرآن، ص 76.

[20]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص259.

[21]-نفسه ، ص54.

– النظم هو مراعاة قواعد النحو وأحكامه، يقول" :ليس النظربعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: استوالتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهل لا يعدو أن يكون ثلاثة أقسام ، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما ".[22]

– **جمال التعبير مرتبط بالنص كله: يقول فيما بيانه:** " اعلم أن مما هو أمر يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الك ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الحالة أن تضعها في النفس وضعا واحدا ".[23]

– **حسن الفهم مرده إلى حسن الصياغة:** يقول: " إذا كان النظم سويا، والتأليف مستقيما، وكان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك. واذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع، وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه، واذا أفرط الأمر في ذلك صار إلى التقعيد الذي قالوا: إنه يستهلك المعنى".[24]

- **المتلقي في نظرية النظم: يقول: "** واعلم أنه لا يصادف القول في هذا (الباب النظم) موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة... و حتى عجبته عجب، وإذ نبهته لموضع المزية انتبه فأما مان كانت الحالان والوجهان عنده أبدا على سوء، وكان لا يفقه من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، ولا إعرابا ظاهرا، فما أقل مما يجدي الكلام معه ".[25]

تقنين البلاغة عند السكاكي (ت 626هـ): ولما وصلت قضية البلاغة إلى السكاكي (ت 626هـ)، فقد حدد ماهية هذا العلم، ونظمه ، ويوه، وقسمة إلى علمين معروفين وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وجعل الفنون البديعية المعروفة من محسنات لفظية ومعنوية، ذيلا لهما .

---

[22]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 70.

[23]- نفسه، ص 77 –78.

[24]-نفسه، ص 183.

[25]-نفسه، ص 195.

والحق أن السكاكي تحدث عن البلاغة في تأسيسه لمشروعه " علم الأدب ، يقول: " وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهي عنده أنواع متأخذة فأودعته علم الصرف بتمامه ، وإنه لا يتم الإ يتم إلا بعلم الاشتقاق (..) وأوردت علم النحو بتمامه ، وتمامه علمي المعاني و البيان" [26].

غير أن الجهد البلاغي المذكور في كتاب "مفتاح العلوم "لا يقل أهمية من فهو تعود إليه المزية في تحديد ماهية العلم ورسم حدوده ، و بيان خارطة فنونه، لو ات المحدثين يرون أن النشاط البياني فيه أصابه الجمود، وتحولت البلاغة على يديه ال مقنن، بعدما كان الذوق أساس التعامل مع الإبداع. و درس المسائل البيانية بالطريقة الت درس فيها علم النحو والصرف والمنطق والعروض، والذي سبقوا السكاكي نظروا إلى البلاغة على أنها علم جمالي.

وقد عمل تلميذه الخطيب القزويني على تلخيص المفتاح، وقد اهتم بالجانب المتعلق بالبلاغة، فوضع تعريفا لعلم البديع، وجعل البلاغة العلوم الثلاثة المعروفة اليوم، وانكب العلماء بعده في شرح التلخيص، فظهرت الشروح والحواشي ووصلت البلاغة إلى الصورة المعهودة إلينا اليوم.

توطئة:

إن علم المعاني من أهم علوم البلاغة، يهتم بتتبع معاني الكلم، و " يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"، الأمر الذي يساعدنا في تحقيق التدبر للقرآن الكريم، وحسن تذوق الشعر والكلام الرفيع.

وعلم المعاني من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث بلاغية تتصل بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم أو تأخير، أو حذف أو ذكر، أو تعريف أو تنكير، أو قصر أو فصل أو وصل، أو إيجاز وإطناب ومساواة.

---

[26]-السكاكي، أبو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، تحقيق حمدي محمد قابيل، المكتبة التوفيقية، مصر، ص 10.

ولم يرد هذا المصطلح « علم المعاني » في الكتب التي سبقت مفتاح العلوم للسكاكي (ت626هـ)، والذي حصل عندهم أنهم استعملوا مصطلح المعاني، وأسندوه للقرآن أو الشعر، فيقولون " معاني القرآن"، أو " معاني الشعر.

إن علم المعاني الذي يهتم بتتبع خواص تراكيب الكلام كما حدده السكاكي، ونقل البلاغيون التعريف نفسه، من الذين جاءوا بعده، بدءا من القزويني في التلخيص والإيضاح[27] .تكمن أهميته أنه يدلنا على اختيار التركيب اللغوي الصحيح المناسب لمقتضيات القول، فيكون الكلام بحسب أحوال المتلقين. وبناء على ذلك فإن المتكلم ينقل خبرا يسير وفق مقتضيات

حال السامع الأمر الذي يجعلنا أمام خبرا متعدد الأضرب وهو ما سنعرف مفهومه ومحتواه في هذه المحاضرة.

الأسلوب الخبري:

لقد نشأ الكلام حول مفهوم الخبر والإنشاء في عصر المأمون في سياق ذلك الجدل القائم حول فتنة القول بخلق القرآن. ورأى المعتزلة أن القرآن كان وحيا إلا أنه مخلوق، ودليلهم أن ما تضمنه لا يخرج عن واحد من ثلاثة: أمر ونهي وخبر، وذلك مما ينفي عنه صفة القدم) ومن هنا حدد المعتزلة الخبر من حيث صدقه وكذبه، والحاصل أن المعتزلي " إبراهيم بن سيار النظام" يرى أن صدق الخبر أو كذبه هو في مطابقته لاعتقاد المخبر أو عدم مطابقته.[28]

ومعنى ذلك أن صدق الخبر عنده مشروط بمطابقته لاعتقاد المخبر، حتى ولو كان ذلك الاعتقاد خطأ في الواقع. وتبعا لرأيه يكون قول القائل : " البحر ماؤه عذب – معتقدا ذلك – صدق، ويكون قوله: " البحر ماؤه ملح " غير معتقد ذلك – كذب .

---

[27]-راجع مناقشة القزويني لتعريق السكاكي، في كتابه: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 2014، ص31.

[28]- ينظر في هذه القضية، عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص 42 وما بعدها.

ولما وصل الأمر عند الجاحظ (ت 255هـ) لم يقف بالخبر عند حد الصدق والكذب، ويزعم أنه محصور في ثلاثة أقسام: صادق، وكاذب، وغير صادق ولا كاذب. والخبر الصادق في نظر الجاحظ هو المطابق للواقع مع الاعتقاد أنه مطابق. والخبر الكاذب عنده هو الذي لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق. أما الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فليس نوعا واحدا، وإنما هو أربعة أنواع، وهذه هي[29]:

1. الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق.
2. الخبر المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا.
3. الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد أنه مطابق.
4. الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا.

ومن العلماء البلاغيين الذين تطرقوا الموضوع الخبر ، ابن قتيبة في كتابه " أدب الكاتب"، فهو يرى أن الكلام أربعة: أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة، ثلاثة يدخلها الصدق والكذب، وهي الأمر، والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر " [30].

ويعرف قدامة بن جعفر الخبر بقوله: " والخبر كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده ، كقولك: قام زيد فقد أفدته العلم بقيامه، ومنه ما ياتي بعد سؤال فيسمى " جوابا" كقولك في جواب من سألك: ما رأيك في كذا؟ فتقول: رأيي كذا. وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبرا، فإذا أتي بعد سؤال كان جوابا كما قلنا " [31]. وقد حدد قدامة الخبر بقوله: " وليس

في صنوف القول وفنونه ما يقع فيه الصدق والكذب غير الخبر والجواب إلا أن الصدق والكذب يستعملان في الخبر، ويستعمل مكانهما في الجواب " الصدق والخطأ"، والمعنى واحد وان فرق اللفظ بينهما ، وكذلك يستعمل في الاعتقاد موضع الصدق والكذب " الحقو الباطل والمعنى قريب من قريب[32]

---

[29]-المرجع نفسه، 43.

[30]-ابن قتيبة: أدب الكاتب، شرح علي فاعور، إصدرات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ص24.

[31]- قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص44.

[32]- نفسه، ص 45.

أما ابن فارس فقد عقد في كتابه " الصاحبي" بابا سماه "الخبر"، قال فيه: " وأما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام (...) وأهل النظر يقولون : الخبر ما جاز تصديقه أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمرا في ماض من زمان أو مستقبل أو دائم" [33].

وبناء على ذلك يمكن أن نستخلص مفهوما للخبر، وهو ما يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب. فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا. وهذه الفكرة التي وجدناها عند البلاغيين تفرض علينا التساؤل من أي جهة يكون الخبر صادقا أو كاذبا، لأن بعض الأخبار مقطوع بصحتها ولا تحتمل الكذب البتة، وهي أخبار الله تعالى، أي كل ما يخبرنا به، وأخبر رسله، والبديهيات المؤلوفة (مثل ماء البحر

ملح، وماء النهر عذب). ومن ثم يكون احتمال الخبر للصدق أو الكذب بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبري ذاته، دون النظر إلى المخبر أو الواقع.

الإسناد الخبري:

يذهب الخطيب القزويني حاجة الخبر إلى مسند إليه ومسند، واسناد.[34]

أغراض الخبر:

للخبر غرضان رئيسيان حقيقيان هما[35]:

1- فائدة الخبر : وهو غرض مباشر وذلك إذا كان المخاطب يجهل مضمونه قبل أن نقوله له، أو قبل أن يقرأه كأن أقول أو أكتب لمن يجهل ما سأقول أو أكتب: ولد الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الفيل.

2- لازم فائدة الخبر: وهو غرض غير مباشر وذلك إذا كان المخاطب بالخبر يعلم مضمونه، ولكنه يجهل أن المتكلم يعلمه، وفيه يفيد المخاطب ما ترتب على الخبر وهو علم المتكلم به كأن أقول لما رأيت في الحديقة ولم يرني: كنت في الحديقة أمس.

---

[33]- ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص47.

[34]-ينظر، القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص38.

[35]-ينظر، أحمد محمود المصري: رؤى في البلاغة العربية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2009، ص 25.

غير أن الذي ينبغي أن نعلمه أن ما ذكرناه يؤدي وظيفة رئيسية (فائدة ولازم الفائدة)، في حين أن وظيفة الخبر تتجاوزهما إلى وظائف أو أغراض بلاغية كثيرة تفهم من سياق الكلام، وهي: المدح، والفخر، والاسترحام والاستعطاف، و إظهار الضعف والخضوع، والتحسر، والتهديد، واستنهاض الهمم، والرثاء، والوعظ والتحذير، والهجاء.

ولنأخذ أمثلة لبيان بعض هذه الأغراض، ومنها إظهار الضعف والخضوع، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا.) والتحسر في قوله تعالى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ)

إلى غير ذلك من الأغراض التي تفهم من سياق الآيات القرانية، والأبيات الشعرية، وكل كلام يريد أن يوصله المتكلم.

أضرب الخبر:

إن التعامل مع الكلام من الوجهة البلاغية يكون وفق مقتضيات حالة السامع، ولذلك قسم البلاغيون الخبر بالنظر للمتلقي، وحالته النفسية، وحركته الذهنية إلى ثلاثة أقسام[36]

1- الخبر الابتدائي: وهو يتوجه إلى مق خالي الذهن تتسم حركة الذهنية بالحيادية وعدم المعرفة المسبقة لذا تستغني فيه الجملة الخبرية عن المؤكدات التي تقوي الحكم الإسنادي، وذلك لعدم حاجة المتلقي إلى التأكيد نظرا لأن طبيعة النفس تلقى الأخبار التي لا علم لها بها بالقبول والتصديق، ومنها قول المتنبي:

وَتَأتي عَلى قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ عَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ
وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها

2- الخبر الطلبي: وهو يتوجه إلى متلق مرتبك متحير تتسم حركته الذهنية بالتردد اتجاه

[36]- أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ص 46 وما بعدها.

مضمون الحكم الذي يوجه إليه لذا تزود الجملة الخبرية بمؤكد واحد يقوي الحكم ويثبته في ذهن المتلقي، وقد سمي هذا الضرب طلبيا لأن المخاطب متردد في تصديق مضمونه وطالب بلسان حاله معرفة حقيقته. ومن ذلك قول الله تعالى: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ).

3- الخبر الإنكاري: وهو يتوجه إلى متلق رافض مخالف تتسم حركته الذهنية بإنكار مضمون الحكم الذي يوجه إليه وعدم قبوله، لذا تزود الجملة الخبرية بمؤكدين أو أكثر تبعا لدرجة إنكار المتلقي لتقوية الحكم وحث المتلقي على قبوله، فاستعمال التوكيد مرتبط بحدس المتكلم وما يتراءى له من خلال عناصر المقام، ويتجلى في قوله تعالى: (**قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**).

مؤكدات الخبر: وهي موضحة في الجدول :

أداة التوكيد	الشاهد
إن	(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)
لام الابتداء	(وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُم)
القسم	**(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)**
ألا أما	(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) - أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وأضحك وَالَّذِي أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرَه الْأَمْر.
السين وسوف	(سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) الطلاق :07 (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) التكاثر :03و04

قد	(قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ)
ضمير الفصل	(أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) البقرة :04